2/ الفصاحة:

إذا كنا قد أشرنا إلى أنّ مصطلح البلاغة قد ظهر منذ فترة مبكّرة في التّاريخ العربي، فإنّ مصطلح الفصاحة لم يكن متأخرّا عنه في الظّهور بكثير، حيث وجد في القرآن الكريم، وكان صفة للمتكلّم، وذلك في قوله تعالى: "وأخي هارون هو أفصح منّى لسانا" القصص،آ34. بعدها ظهر المصطلح عند كثير من اللغويّين والنّقاد، ولم يكن واضح الدّلالة، بل كان أميل إلى الوصف وإلى المعنى اللّغوي الّذي يفيد الوضوح والظّهور منه إلى المعنى الاصطلاحي.

في معاجم اللّغة، تقول العرب: أفصح الصّبح إذا ظهر، وأفصح اللّبن إذا أصبح تحوّله من حالة إلى أخرى واضحا، والكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللّفظ، جيّد السّبك، ولهذا وجب أن تكون كلّ كلمة فيه جاريّة على القياس الصّرفي، بيّنة في معناها، مفهومة عذبة سلسة، مثال: قال المتنبيّ:

فلا يبرم الأمر الّذي هو حائل ++++++ولا يحلل الأمر الّذي هو مبرم.

هذا البيت غير فصيح لأنّه اشتمل على كلمتين غير جاريتين على القياس الصّرفي، وهما: حائل، ويحلل؛ فإنّ القياس: حالّ، ويحلّ، بالإدغام.

ويعدّ "الجاحظ" أوّل من سجّل البداية المتميّزة لهذا المصطلح في كتابه: البيان والتّبيين؛

-أورد الآية الكريمة السّابقة الذّكر وعلّق عليها قائلا: "رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجّة والمبالغة في وضوح الدّلالة لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنّفوس إليه أسرع".

-استخدمه صفة للألفاظ الّتي تتفاوت درجات استعمالها، فهناك المستعمل ولكنّه غير شائع، والشّائع هو الّذي وصفه الجاحظ بالفصاحة لأنّه يعكس لغة القرآن الكريم، ونعثر على هذا فيما أورده عن قول أبي سعيد لابن مناذر في المفاضلة بين الألفاظ، حيث يقول: "ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنّما الفصاحة لنا أهل مكّة"، فقال له ابن مناذر: "أمّا ألفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن الكريم، وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن حيث شئتم، أنتم تسمّون القدر برمة، وتجمعون البرمة على برام، ونحن نقول: قدر ونجمعها على قدور، وقال تعالى: "وجفان كالجواب وقدور راصيات"، وأنتم تسمّون البيت إذا كان فوق البيت علية، وتجمعون هذا الاسم على علالي، ونحن نسمّيه غرفة، ونجمعها على غرفات، وغرف، وقال تعالى: "غرف من فوقها غرف مبنيّة"، وقال أيضا: "هم في الغرفات آمنون".

-ورد لفظ الفصاحة كذلك صفة للّغة الّتي تسير على القواعد ومراعاة القياس وطرق التّعبير، ونستشفّ هذا من قوله على قول العتّابي السّابق ذكره..."إنّما عني العتّابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء".

-استخدامها صفة للألفاظ الّتي تخلو من تنافر حروفها، ومن ذلك قوله: "من ألفاظ العرب ما تتنافر وإن كانت مجموعة في بيت شعر، لم يستطع المنشد إنشادها إلاّ ببعض الاستكراه، فمن ذلك قول الشّاعر:

وقبر حرب بمكان قفر++++++وليس قرب قبر حرب قبر".

-أبو هلال العسكري: جاء بعد الجاحظ، وأفرد حديثا خاصا للبلاغة والفصاحة وذهب إلى أنّ الفصاحة مقصورة على اللّفظ أمّا البلاغة فهي مقصورة على المعنى.

-ابن سنان الخفاجي: في كتابه "سرّ الفصاحة"، حيث قصر الفصاحة على الألفاظ، أمّا البلاغة فهي تختصّ بالألفاظ مع المعاني، -وقد سبق أن تطرقنا إلى هذا في سياق الحديث عن البلاغة-.

-الجرجانيّ: ترد عنده الفصاحة والبلاغة والبيان بنفس المعنى.

-القزوينيّ: بعد حديث مجمل عن الفصاحة والبلاغة انتقل إلى الحديث عن فصاحة الكلام وفصاحة المتكلّم.

فصاحة الكلام: وتنقسم بدورها إلى: -فصاحة المفرد -فصاحة التّركيب.

أ/فصاحة المفرد: -أن يكون خاليا من تنافر الحروف، مثل قول الأعرابيّ: تركت ناقتي ترعى الهعجع. كذلك قول امرئ القيس وهو يصف شعر ابنة عمّه:

غدائره مستشزرات إلى العلا++++++تظلّ العقاص في مثنى ومرسل.

-أن لا يكون غريبا، لا يظهر معناه إلاّ بالرّجوع إلى المعجم كقول عيسى بن عمرو النحويّ عندما سقط عن دابّته واجتمع النّاس حوله: " مالكم تكأكأتم عليّ كتكأكئكم على ذي جنّة؟ افرنقعوا عنّي".

-مخالفة القياس: مثل قول أبي النّجم:

الحمد لله العليّ الأجلل++++++الواحد الفرد القديم الأوّل.

ب/فصاحة التّركيب: حصرها في ثلاث مظاهر:

-ضعف التّأليف: أن يكون الكلام جاريا خلاف ما اشتهر من قوانين النّحو: كوصل الضّميرين، تقديم غير الأعرف على الأعرف...، كقول المتنبّي:

خلت البلاد من الغزالة ليلها++++++فأعاضهاك الله كي لا تحزنا.

-تنافر الكلمات: وهو ما ينتج عنه ضعف التّأليف، ثقل على اللّسان، عسر النّطق، مثل قول الشّاعر:

وقبر حرب بمكان قفر++++++وليس قرب قبر حرب قبر.

-التّعقيد: وينقسم بدوره إلى قسمين: -التّعقيد اللّفظي، -التّعقيد المعنويّ

-**التّعقيد اللّفظي**: هو كون الكلام خفي الدّلالة على المعنى المراد به، حيث تكون الألفاظ غير مرتّبة وفق ترتيب المعاني، (وينشأ ذلك التّعقيد من تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبيّ بين الكلمات الّتي يجب أن تتجاور ويتّصل بعضها ببعض (كالصفة والموصوف، البدل والمبدل منه، المبتدأ والخبر، المستثنى والمستثنى منه...)، وهو مذموم لأنّه يوجب اختلال المعنى واضطرابه، من وضع الألفاظ في غير المواضع اللاّئقة بها، كقول المتنبّي:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم++++++شيم على الحسب الأغرّ دلائل.

-**التّعقيد المعنويّ**: كون التّرتيب خفيّ الدّلالة على المعنى المراد، حيث لا يفهم معناه إلاّ بعد عناء وتفكير طويل، وذلك لحدوث خلل في انتقال الذّهن من المعنى الأصليّ إلى المعنى المقصود، بسبب إيراد اللّوازم البعيدة، المفتقرة إلى وسائط كثيرة، مع عدم ظهور القرائن الدّالة على المقصود، بأن يكون فهم المعنى الثّاني من الأوّل بعيد، كما في قول: عبّاس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدّار عنكم لتقربوا++++++وتسكب عيناي الدّموع لتجمدا.

جعل سكب الدّموع كناية عمّا يلزم في فراق الأحبّة من الحزن والكمد، فأحسن وأصاب في ذلك، لكنّه أخطأ في جعل جمود العين كناية عمّا يوجبه التّلاقي من الفرح والسّرور، بقرب أحبّته، فهو معنى خفي وبعيد، إذ لم يعرف في كلام العرب عند الدّعاء لشخص بالسّرور أن يقال له جمدت عينك، أو لا زالت عينك جامدة، بل المعروف عندهم أنّ جمود العين إنّما يكنّى به عن عدم البكاء في حالة الحزن، كما في قول الخنساء:

أعيني جودا ولا تجمدا++++++ألا تبكيان لصخر النّدى.

كان هذا كلّه عن فصاحة الكلام.

-**فصاحة المتكلّم:** هي عبارة عن ملكة يقتدر بها صاحبها على التّعبير عن المقصود بكلام فصيح في أيّ غرض كان، فيكون قادرا بصفة الفصاحة الثّابتة في نفسه على صياغة الكلام متمكّنا من التصّرف في ضروبه، بصيرا بالخوض في جهاته ومناحيه.

استنتاج: يمكن أن نلاحظ أنّ هناك تداخل بين مصطلحي البلاغة والفصاحة عند القزويني.